

مقدمة :

تعد العلاقة بين علم النفس والنقد الأدبي من العلاقات المعقدة التي أثرت بشكل كبير على تطور النظرية الأدبية المعاصرة. فعلى الرغم من أن الأدب في جوهره يعبر عن الانفعالات الإنسانية والأحاسيس النفسية، فإن تأثير علم النفس في النقد الأدبي لم يكن دائماً محل اتفاق بين النقاد والباحثين. ورغم ذلك يتيح الجمع بين الأدوات النفسية والتقنيات النقدية فتح أفق جديد لفهم النصوص الأدبية وتفسير الشخصيات والأحداث والرموز التي تحتويها. وعلى الرغم من أن هذه العلاقة قد مرت بمراحل من التوتر والجدل، فإنها أفضت إلى تطور نظريات أدبية جديدة تدمج بين المنظور النفسي والأدبي.

ستعرض هذه المحاضرة الجدل القائم حول هذه العلاقة من خلال تبيان أبعادها وأثرها، مع التركيز على وجهات النظر المختلفة التي تراوحت بين تكامل العلمين ورفض هذا التكامل.

أولاً/ التأثير المتبادل بين الأدب وعلم النفس / من التحليل النفسي إلى التفسير الأدبي:

رغم الجدل حول العلاقة بين الأدب وعلم النفس، فإن الأدب من جانب آخر كان له تأثير كبير على تطور علم النفس نفسه. فالأدب يقدم نصوصاً معقدة تُحاكي التجارب النفسية للعقل البشري وتُعبّر عن مختلف جوانب الشخصية البشرية، مثل الانفعالات، الصراع الداخلي، والهويات المتعددة. هذه النصوص الأدبية توفر مواد غنية لعلم النفس المعاصر، الذي يسعى لفهم التفاعلات النفسية المتنوعة.

تعود بداية تأثير علم النفس في النقد الأدبي إلى التحليل النفسي الذي طوره سيغموند فرويد في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. ففي إطار هذا التحليل، اعتبر فرويد الأدب شكلاً من أشكال التعبير عن اللاوعي، حيث يمثل النص الأدبي انعكاساً لل رغبات والمشاعر المكبوتة لدى الكاتب أو شخصياته. وقد طرح فرويد في العديد من مؤلفاته مثل "مقدمات التحليل النفسي" حول الانعكاسات النفسية في الأدب في شكل لاوعي ودوافع مكبوتة .

إن الجانب الجوهري في هذا التفسير النفسي للأدب هو تركيزه على الشخصيات الأدبية باعتبارها تمثل صراعات داخلية بين القوى النفسية المختلفة: الهو (الدوافع البدائية) والأنا (الوعي) والأنا الأعلى (الضمير الأخلاقي). وبتطبيق هذه المفاهيم (التي تمثل الجهاز النظري لمنهج التحليل النفسي الفرويدي) على الأدب، يمكن فهم النصوص الأدبية على أنها تجسيد للصراعات النفسية الفردية والجماعية. فعلى سبيل المثال، تعتبر شخصية هاملت في مسرحية شكسبير هي تجسيد واضح لصراع لاوعي بين الرغبات الفردية والالتزامات الأخلاقية، وهو ما يعكس بشكل جلي النزاعات النفسية وفقاً للنظرية الفرويدية.

ثانيا / المدرسة النفسية في النقد الأدبي:

بدأت العلاقة بين علم النفس والنقد الأدبي في الظهور بشكل قوي في النصف الأول من القرن العشرين، خاصة مع تأثير التحليل النفسي، الذي أسسه سيغموند فرويد. حيث اعتبر فرويد الأدب وسيلة للتعبير عن الرغبات المكبوتة واللاوعي، مشيراً إلى أن الأدباء يعكسون في أعمالهم الصراعات النفسية الداخلية التي غالباً ما تكون غير مرئية للعامة. فالتفسير النفسي للأدب، من خلال تحليل شخصيات الروايات والأدوات الأدبية، سمح للنقاد بالبحث عن الرموز والتلميحات التي تعكس القضايا النفسية.

إضافة إلى ذلك، قدّم جاك لا كان (وهو من أبرز المفكرين الذين ربطوا بين التحليل النفسي والنقد الأدبي) قدم فكرة "الذات المفقودة" في الأدب، حيث يُظهر النص الأدبي برأيه أبعاداً نفسية متناقضة تتعلق بالهوية والرغبات غير الملباة، مما يعزز الدور المهم لعلم النفس في تحليل الأدب.

تطورت لاحقاً أفكار جاك لا كان، الذي رفض بعض أسس التحليل النفسي الفرويدي التقليدي، ليضيف إلى الأدب بعداً لغوياً، حيث اعتبر أن اللغة نفسها هي العامل الرئيس في تشكيل الهوية النفسية. وبالتالي، يتم فهم الأدب ليس فقط من خلال تعبيره عن حالات نفسية مكبوتة، بل أيضاً من خلال الطريقة التي يتم بها التعبير عن الذات والعلاقات الإنسانية في اللغة.

أحد المفاهيم الأساسية الأخرى التي قدمها لا كان في هذا الصدد هو (مرحلة المرأة)

(The mirror stage) حيث يرى أن الطفل يمر بتجربة يتعرف فيها على صورته في المرأة، مما يعكس بداية تكوين الهوية الذاتية. هذا المفهوم يمكن تطبيقه على النصوص الأدبية خاصة منها التي تُظهر الشخصية في علاقة مع "الآخر" أو مع العالم الخارجي، مما يعكس كيفية تشكيل الذات من خلال التفاعل مع النصوص والرموز.

ومع تطور علم النفس في أواخر القرن العشرين، ظهر اتجاه جديد في النقد الأدبي يعتمد على علم النفس المعرفي والسلوكي. يختلف هذا الاتجاه عن الفرويدية في كونه يركز على فهم كيفية تأثير العمليات العقلية والمعرفية على السلوك البشري وكيفية استجابة الأفراد للمواقف النفسية.

في هذا السياق، يحاول النقاد الأدبيون المعرفيون دراسة الشخصيات الأدبية من خلال الفهم المعرفي للسلوك، مثل تفسير كيفية تشكل الذاكرة، والمعتقدات، والتوقعات في الأدب. على سبيل المثال، يمكن دراسة شخصية تعاني من اضطراب ما بعد الصدمة في عمل أدبي من خلال علم النفس المعرفي لفهم كيفية تأثير الذاكرة المؤلمة على قرارات الشخصية وتفاعلاتها. هذا التوجه يفتح المجال لفهم أعمق للنصوص الأدبية من خلال التركيز على العمليات المعرفية التي تحدد سلوك الشخصيات.

ثالثاً/ توجّهات النقد الأدبي في ظل علم النفس :

شهد النقد الأدبي تطوراً جذرياً بفضل التفاعل مع العلوم الإنسانية المختلفة، وكان لعلم النفس تأثير كبير في تشكيل أحد اتجاهاته الحديثة، وهو النقد النفسي. هذه العلاقة القائمة بين الأدب وعلم النفس نشأت من تشابه في الهدف: كلاهما يسعى إلى فهم الإنسان وتجربته. فما أهمية تطبيق مفاهيم علم النفس في النقد الأدبي، وما هي أهم الطروحات النظرية التي أسست النقد النفسي؟

أ/ أهمية تطبيق مفاهيم علم النفس في النقد الأدبي:

يرى المدافعون عن اتجاه النقد النفسي أن علم النفس يمكّن الناقد من التوصل إلى نتائج أكثر موضوعية باستخدام آلياته. ولعل أهمية المقاربة النفسية للأدب حسبهم تكمن في:

- فهم أعمق للشخصيات: علم النفس يساعد في تفسير الدوافع الداخلية للشخصيات الأدبية وصراعاتها.
- تحليل اللاوعي: يسمح النقد النفسي بالكشف عن الطبقات اللاواعية للنصوص، سواء في الكتابة أو القراءة.
- استكشاف الرموز النفسية: يوضح النقد النفسي كيف تعبر النصوص عن الرغبات والخواف المكبوتة من خلال الرموز والأساطير.
- دراسة العلاقة بين الكاتب والنص: يسهم علم النفس في فهم تأثير تجارب الكاتب على الظاهرة الأدبية.

ب/ النقد الأدبي النفسي، المراحل والأعلام:

- مرحلة التأسيس للتحليل النفسي:

سيغموند فرويد كان الرائد الأول في نقل مفاهيم علم النفس إلى مجال الأدب. عبر كتابه (تفسير الأحلام) 1900م، أرسى الأسس لتحليل النصوص الأدبية من خلال مفاهيم مثل:

اللاوعي: اعتبر فرويد أن النصوص الأدبية، مثل الأحلام، تعبر عن رغبات مكبوتة وصراعات داخلية.

عقدة أوديب: طبق هذا المفهوم لفهم صراعات الشخصيات العائلية، كما فعل في تحليله لـ"هاملت".

الرموز النفسية: بين كيف تُخفي النصوص المعاني العميقة خلف الرموز.

تعد نظرية سيغموند فرويد في التحليل النفسي من أبرز المؤسسين للنقد النفسي للأدب. وقد عمل على تحليل النصوص الأدبية من منظور اللاوعي، حيث اعتبر أن الأدب، كغيره من الأشكال التعبيرية الإنسانية، يعكس الصراعات الداخلية والتوترات النفسية التي يعاني منها الكاتب. فالنص الأدبي بالنسبة لفرويد ليس مجرد تعبير عن الواقع الخارجي أو مشاعر المؤلف، بل هو تجسيد لل رغبات المكبوتة في اللاشعور. يشير فرويد إلى أن الأدب يمثل محاولة من الكاتب للتعامل مع التوترات النفسية التي لا يستطيع التعبير عنها بشكل مباشر في حياته اليومية. بناءً على ذلك، يكون العمل الأدبي ساحة للإفصاح عن الأفكار والمشاعر التي توجد في اللاوعي، مثل العقدة الأوديبية أو الرغبات الجنسية المكبوتة. لذا، يعد تحليل النصوص الأدبية من خلال مفاهيم مثل قمع و تحويل و الرمزية النفسية أداة لفهم ما وراء لغة النص السطحية.

أما كارل يونغ فقد قدم إضافة نوعية لنقد الأدب من خلال نظرية الأنماط الأولية و الرموز الجمعية. في نظرية يونغ، يعتقد أن الإنسانية تشترك في مخزون لاواعي جماعي، يتكون من رموز وصور مشتركة بين جميع الثقافات على مر العصور. وبالتالي، فإن الشخصيات والأحداث في الأدب قد تعكس هذه الرموز الجمعية التي تشكل في اللاوعي الجماعي. يُنظر إلى الأنماط الأولية كصور أو قوالب تتكرر في القصص والأساطير والثقافات المختلفة، مثل الظل و الأم الكبرى و البطل. يرى يونغ أن الأدب يعكس هذه الرموز والأشكال في القصص بشكل يتجاوز حدود الثقافة الفردية، وهو ما يمنح الأدب قوة عالمية. وبالتالي، يعتبر الأدب من خلال منظور يونغ تعبيراً عن هذا اللاوعي الجماعي الذي يربط الأفراد من مختلف الثقافات.

- مرحلة الاستثمار النظري لفكر فرويد:

تحليل الشخصيات الأدبية عند (شارل مورون): في هذه المرحلة، بدأ المفكرون النفسانيون في التوسع في تطبيق النقد النفسي على الأدب، وكان شارل مورون من أبرز الأسماء في هذا المجال. يركز مورون على تحليل الشخصيات الأدبية من خلال مفاهيم التحليل النفسي، بحيث يرى أن الشخصيات في الأدب غالباً ما تعكس تطورات نفسية معقدة تتراوح بين الصراعات الداخلية و التوترات العاطفية. يطبق مورون مفاهيم فرويدية لفهم هذه الشخصيات، مثل العصاب و الآليات الدفاعية و العقد النفسية. بالنسبة له، لا يمكن فصل الشخصية الأدبية عن التطورات النفسية التي مرت بها، سواء في شكلها الخارجي أو في تطورها الداخلي. كما يعتقد أن هذه الشخصيات غالباً ما تكون تجسيدا للصراعات النفسية التي تؤثر على الإنسان بشكل عام.

شارل مورون من أوائل من نقل التحليل النفسي إلى حقل النقد الأدبي، حيث ركز على دراسة الشخصيات الأدبية باعتبارها انعكاسات نفسية للكاتب. في تحليلاته، حيث حاول فك شيفرة النصوص من خلال ديناميات الشخصيات ومواجهاتها للصراعات النفسية.

مارت رويبر والرواية العائلية: قدمت مارت رويبر إسهاماً محورياً في النقد النفسي عبر مقارنة "الرواية العائلية". وهو مصطلح مستقى من الجهاز النظري الذي وضعه سيجموند فرويد. غير أنها اختلفت عنه في تحديد دوافعها. رأت أن العديد من النصوص الأدبية تعكس صراعات نفسية مرتبطة بالعلاقات العائلية، مثل الرغبة في الانفصال عن الأبوين أو التماهي مع أحدهما. قدمت مارت مفهوم "الرواية العائلية" بوصفه أحد الأدوات التي يمكن استخدامها لفهم الأدب من خلال الصراعات النفسية داخل العائلة. بالنسبة لها، تشير الرواية العائلية إلى انخيلات والتصورات التي يحملها الفرد عن عائلته، وهي تمنيات لاواعية قد تتعارض مع الواقع، لكنها تؤثر بشكل كبير على تطور الشخصية والعلاقات بين أفراد الأسرة. وترى أن الرواية العائلية تشكل نوعاً من الذاكرة الجمعية للأفراد، حيث تتناقل الأجيال المختلفة صوراً مثالية أو مفرطة عن العائلة. في الأدب، يمكن أن نرى كيف تؤثر هذه الروايات العائلية على الشخصيات، سواء من خلال النزاع بين الأجيال أو من خلال التأثيرات التي يتركها التاريخ العائلي على الفرد.

مرحلة التنظير اللغوي النفسي :

البنية اللغوية النفسية في تحليل النصوص عند (جاك لاكان): في هذه المرحلة، برز جاك لاكان كمفكر رئيسي في إضافة البعد اللغوي والنظري إلى التحليل النفسي للأدب. ركز لاكان على البنية الرمزية و اللغوية للنص الأدبي نفسياً. حيث اعتبر أن الإنسان لا يتعامل مع الواقع مباشرة، بل من خلال الرموز التي تُثقل عبر اللغة. في الأدب، فيكون النص الأدبي محملاً برموز تعكس الصراعات النفسية التي يمر بها الكاتب أو الشخصية الأدبية. كانت نظرية لاكان تركز على العلاقة بين اللغة و اللاشعور، بحيث أن كل رمز لغوي يحتوي على معاني خافية وغير معلنة، وهي تنبع من اللاوعي. كما أدخل مفهوم "الآخر" في النقد الأدبي، الذي يُعتبر الأداة التي يتم من خلالها تشكيل هوية الشخصية الأدبية. من خلال هذه النظريات، أصبح من الممكن تفسير الشخصيات الأدبية ليس فقط من خلال تصرفاتها بل من خلال اللغة التي يتم بها تمثيل الواقع الداخلي لها.

المرحلة المعاصرة (بيلمان):

النقد النفسي المعاصر للأدب (جان بيلمان): في المرحلة المعاصرة، قام جان بيلمان نويل بتطوير مفاهيم جديدة في النقد النفسي للأدب. من خلال دمج التحليل النفسي مع دراسات الأدب الحديثة، حاول بيلمان معالجة النصوص الأدبية بتوجهات تجمع بين النظريات النفسية التقليدية (مثل الفرويدية واللاكانية) والتوجهات الحديثة في التحليل النفسي. ركز بيلمان على الوعي الشخصي للأفراد في الأدب، مع التأكيد على دور الثقافة والمجتمع في تشكيل الشخصية الأدبية. في نقده، يعترف بيلمان بوجود تفاعلات معقدة بين الشخصية و اللغة و الثقافة التي تجسد في الأدب. لقد قدم مقارنة شاملة تسعى إلى فهم النصوص الأدبية باعتبارها تجسيدات لتفاعلات النفس البشرية مع الواقع الاجتماعي والثقافي. بيلمان أضاف بعداً جديداً للتحليل النفسي الأدبي، حيث يرى الأدب ليس فقط نتيجة لصراع داخلي بل وسيلة للتفاعل مع البيئة الثقافية والمجتمعية.

